﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عـلاقـة الأمـر بـالـدّفـاع على النّفس بالابتلاءِ لـتـمـحـيـص المؤمنين حقًّا

لمّا وبَّخ الله المؤمنين على تراخيهم في الجهاد في الآياتِ السَّابقةِ؛ أعقبَهُ هنا - على سبيلِ التَّرقِّي - توبيخَهم على ظنِّهم أَن يُتركوا دونَ أَن يبلوَهم اللهُ بجهادِ المشركين؛ ليتبيَّنَ المخلِصُ في إيمانِه وجهادِه من غيرِه، فانتقلَ من ترغيبٍ إلى مزيدٍ فيه.

وأيضًا: لمَّا كان التَّقديرُ - لما أرشد إليه تقاعدُهم عن القتال وإدخالِ ﴿أَمْ﴾ المرشدِ إلى أنَّ مدخولَه وسطُ الكلام، فإنّ الابتداء له الألف وحدَها - وهل حسبتم أنَّه تعالى لا يعلمُ ذلك، أو لا يقدرُ على نصركم؟ بنى عليه قولَه موبِّخًا لَمَنْ تثاقَلَ عن ذلك بنوعِ تثاقُلٍ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيجَةً﴾: يدورُ معنى الولوج على الدُّخول في مضيقٍ أو فجوة كثيفة الإحاطة تُخْفِي وتَستُر، بحيث يكونُ ملجأً لصاحبِه، كالكهف، وكلُّ شيءٍ أدخلْتَه في شيءٍ ليس منه فهو وليجةٌ، ووَلِيجَةٌ يَكُونُ لِلْوَاحِدِ وَالاثْنَيْنِ وَالجَمْعِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ[2]، ومعنى ﴿وَلِيجَةً﴾ في الآية: بطانةٌ ودُخَلاءُ من المُشْركين يخالطونهم ويودُّونهم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/398.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولج).
(3) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 480.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اختبارُ المؤمنين سنَّةٌ إلهيَّةٌ؛ ليَميزَ اللهُ الصّادقَ من الكاذب

لا تظنُّوا - يا معشرَ المؤمنين - أنْ يتركَكُم اللهُ على ما أنتم عليهِ بغيرِ اختبارٍ يختبرُكم به، ليعلمَ اللهُ علمًا ظاهرًا للخلقِ الذين أخلصوا في جهادِهم، ولمْ يتَّخذوا غيرَ اللهِ ورسولِه والمؤمنين بطانةً وأولياءَ، واللهُ خبيرٌ بجميعِ أعمالِكم ومجازيكم بها.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ حرف ﴿أَمْ﴾ في مطلع الآية:

توبيخُ من يظنُّ سَفَهًا أنْ يتركَهُ اللهُ، من غير اختبارٍ في هذه الدُّنيا

(أم) هذه هي المنقطعة، ولمّا كانت بمعنى (بل) التي للإضرابِ الانتقالي، وكانت الهمزة فيها للإنكار المضمَّنِ معنى النَّهي، والمفيدِ غرضَ التَّوبيخ؛ كان مجيئُها في الكلامِ للانتقال بها من غرضِ التَّوبيخِ على تركِ القتالِ إلى غرضٍ آخرَ: هو الإنكارُ على حسبانِهم أنَّهم يُتركون، ولايُختبرون في إخلاصِهم، وتوبيخُهم عليه، وهذا التَّوبيخ له علاقةٌ بما قبلَه؛ لأنَّهما في موضوعٍ واحدٍ، لما تفيده (أم) من معنى التوسُّط في الكلام، فهو استفهامٌ معترضٌ في وسطِ الكلام، ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، ولم يقل: (أحسبتم)؛ ليفرَّق بينه وبين الاستفهامِ المبتدأ الذي يكون بهمزة الاستفهامِ أو بـ(هل)، ولِما أفادته [أَمْ] من الإضرابِ الانتقالي[1].

بلاغةُ الحذفِ:

تقبيحُ تركِ الجهادِ واتِّخاذِ الوليجةِ من دونِ الله

لمّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلَّ على وجودِ المقابل، وحُذِفَ من الكلامِ للعلمِ به، وتقديرُه: مِنَ الذين لم يجاهدوا منكم، واتَّخذوا وليجةً من دون اللهِ، ونكتةُ حذفِه استهجانُ التَّصريحِ به بعدَ العلمِ به من السِّياقِ.

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 11/426، وابن جرير، جامع البيان: 14/165، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/14، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

دلالةُ الخطابِ في قوله: ﴿حَسِبْتُمْ﴾:

لمّا كان الضَّمير بصيغة الجمع؛ دلَّ على أنَّ الخطابَ لجميع المؤمنين لمّا كرِهَ بعضُهم القتالَ، فدلَّ على أنَّ المقصودَ بالإنكار والتَّوبيخِ هو مَنْ كرِهَ القتالَ، وظنَّ الظَّنَّ المذكور دونَ غيرِه، ونكتةُ خطابِ الجميعِ الإشعارُ أنَّ كراهةَ بعضهم للقتال يؤثِّر في الجميع، وهذه الكراهة طبيعيَّةٌ، وليست ذمًّا للمؤمنين، لِما فيه من الشِّدَّةِ وعِظَمِ المشقَّةِ؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ [البقرة: 216].

كراهةُ بعضِ المؤمنين للجهادِ في سبيل الله، يؤثِّر سلبًا في الأمّة

مناسبةُ مجيءِ الفعل بصيغة المبني للمفعول:

قال: ﴿تُتْرَكُوا۟﴾، فلم يذكر الفاعل؛ لأنَّ الغرضَ تعلُّقُ التَّرك بالمخاطَبين، وليس الغرضُ معرفةَ الذي يتركهم على ما هم عليه من غير اختبار، كما أنَّ التَّركَ مشعرٌ بمعنى التَّخلِّي عن الشَّيء أو تخليتِه أو رفضِه، ولا يناسبُ هنا أن يذكر الفاعلُ؛ لإشعارِه بتخلِّي الله عن المؤمنين، أو يكون الحذفُ للعلمِ بالفاعلِ؛ لظهورِه بدلالةِ السِّياق عليه[1]، ومعنى ﴿تُتْرَكُوا۟﴾: بقاؤكم على الحالةِ التي أنتم عليها دونَ المساسِ بها[2].

تنوُّعُ أسبابِ حذفِ الفاعل، توسُّعٌ في نِكاتِ البلاغةِ ومقاصدِها

دلالةُ مجيءِ مفعول ﴿حَسِبْتُمْ﴾ مصدرًا مؤوَّلًا ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾:

جاءَ مفعول ﴿حَسِبْتُمْ﴾ مصدرًا مؤوّلًا: ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾، ليسدَّ مسدَّ مفعولي (حسبَ)، وذلك أنَّ المصدرَ قد يكون فيما مضى، وفيما هو آتٍ، وليس في صيغته ما يدلُّ عليه، فجاؤوا بلفظ الفعل المشتقِّ منه مع (أن)؛ ليجتمعَ لهم الإخبارُ عن الحدث مع الدِّلالة على الزَّمان[3]. ولمّا كانت (أن) مصدريَّةً تدلُّ على الزَّمانِ المستقبل؛ دلَّ على أنَّهم حسبوا

التَّعبير بالمصدر المؤوّل، تحصينٌ من الإشكالِ، وتخليصٌ من شوائب الإجمال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ترك).
(3) ابن القيم، بدائعُ الفَوائِد: 1/92.

أن يكونَ تركُهم في المستقبل مع الاستمرار على التَّرك، ولمّا كان المصدر المؤوَّل دالًّا على مجرَّدِ معنى الحدث دونَ احتمالِ وصفٍ زائدٍ عليه؛ أفادَ أنَّهم كانوا يريدونَ مطلقَ التَّرك على ما هم عليه، ففي التَّعبير بـ ﴿أَن تُتْرَكُواْ﴾ تحصينٌ من الإشكالِ، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال؛ ليؤذِنَ الكلامُ بركونِ بعضِهم إلى مطلقِ التَّرك من غيرِ أيِّ وصفٍ مقيِّدٍ له، فيشعرُ الكلامُ برغبتِهم في الدَّعة والاستراحة[1].

بلاغةُ حذف متعلَّق ﴿تُتْرَكُواْ﴾:

مواجهة المعتدين أمرٌ لا ينفكُّ عن الإيمانِ والدّين

لمّا كان لا بدَّ لفعلِ التَّرك من تعليقه بمتعلَّق: من حال أو مجرور، يدلُّ على الحالة التي يفارق فيها التَّاركُ متروكَهُ حذف متعلَّق الفعلِ في الآية؛ لإفادةِ العموم، بمعنى: أنْ تُتركوا على الحالِ التي أنتم عليها؛ إشعارًا بأنَّ الجهادَ أمرٌ لا ينفكُّ عن الإيمانِ، ويحتمل أنَّه حذفَ لدلالة السِّياق عليه، أي: أن تتركوا دون جهاد، أو أن تتركوا في دعةٍ، وذلك بعد فتح مكَّة[2].

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾:

المؤمنون يبادرون إلى العملِ الصَّالحِ، ولا يَخلدونَ إلى الدَّعةِ والرَّاحةِ

الواوُ للحالِ، وجملة ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ في موضع الحالِ من ضمير ﴿تُتْرَكُواْ﴾، والمعنى: لا تظنُّوا أن تتركوا في حالِ عدمِ تعلُّقِ علمِ اللهِ بوقوعِ ابتدار المجاهدين للجهاد، وحصول تثاقلِ مَنْ تثاقلوا، وحصولِ تركِ الجهادِ من التَّاركينَ، فإنَّه تعالى يعلمُ أنَّكم ستجاهدون، وتخلصون في أعمالِكم[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجزم ﴿وَلَمَّا﴾:

ما تُيقّن في علم الله تعالى حصولهُ، فهو واقع لا محالة

﴿وَلَمَّا﴾ حرفٌ يفيدُ نفيَ وقوعِ الفعلِ إلى زمنِ التكلُّم، مع توقُّعِ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/192، والسّامرائيّ، معاني النحو: 3/148.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.

وقوعِه في المستقبل، وقد دلَّ هنا على أنَّ تبيُّنَ ذلك للمؤمنين وإيضاحَه لهم سيكون قريبًا، والمرادُ أنَّه إلى الآن لم يتحقَّقْ وقوعُ الجهادِ منكم، لعدمِ حصولِه إلى وقتِ نزولِ الآية، ولكنَّه يُنتظر وقوعُه وَفْقَ ما في علمِ اللّه[1].

بلاغةُ الكناية:

نـفـيُ وقـوعِ الـشَّيءِ نـفـيٌ لعلمِ اللهِ تعالى بوقوعِه

قوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾، نلحظ فيه، أنّه لمّا كانت الأداة (لمّا) تُفيد نفيَ وقوعِ ما تدخلُ عليه إلى وقتِ التكلُّم، وكان المتكلِّم هو اللّه تعالى عالمَ الغيب والشهادة؛ دلَّ على أنَّ الكلامَ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، وبيانُه: أنَّه لمَّا كانَ وجودُ الشَّيءِ يلزمُه أنْ يكون معلومَ الوجودِ عند اللّه؛ كانَ علمُ اللّهِ تعالى بوجوده كنايةً عن تحقُّقِ وجوده، للمبالغة في تحقُّقِ الأمرِ؛ إذ جاء المعنى بطريقِ إقامةِ الحجَّةِ والبرهان عليه، من حيثُ إنَّ تعلُّقَ العلم به مستلزمٌ لوقوعه، فلمَّا نفى اللّهُ تعالى علمَه بجهادِهم وما عطفَ عليه؛ لَزِمَ نفيُ وقوعِ الجهادِ منهم على سبيلِ الاختبارِ، معَ توقُّعِ حصولِه قريبًا؛ ليكونَ الكلامُ على طريق الكناية من ذكرِ اللَّازم وإرادة الملزوم، وهو طريقٌ من طرائق الكناية، أو يقالُ: لو وُجدَ الجهادُ؛ لتعلَّقَ علمُ اللّه به، فلمَّا لم يتعلَّق لقوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾؛ دلَّ على انتفاءِ جهادِ المؤمنين إلى زمنِ نزولِ الآيةِ، فتكون الكنايةُ على الطَّريقة المشهورةِ بذكرِ الملزومِ وإرادةِ اللَّازم، والمعنى: أم حسبتُمْ أنْ تُتْركوا، والحالُ أنَّه لم يَتبيَّنِ الخُلَّصُ مِنَ المجاهدينَ منكم من غيرِهم، وعلى كلا التَّوجيهين يكون المرادُ من نفي علمِه تعالى نفيَ وقوعِ الجهادِ من المخاطَبين ليُجازَوا عليه[2].

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/1668، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/49.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 403، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/41، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/174.

دلالةُ العلم في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾:

مناسبةُ مجيءِ (لَمَّا) في الكلامِ المبادرةُ إلى تحصيلِ ما بعدَها والعملِ به

يحتمل أنْ يكون المرادُ من العلم ظهورَ المعلوم للخلق، كما تقدَّمَ في بيان بلاغةِ الكناية، ويحتمل أنْ يكونَ المرادُ هو اللَّازمَ الثَّانيَ لعلمِ الله تعالى، ليكون على الكناية بإرادةِ اللَّازم الثَّاني، وبيانُه: أنَّ علمَه تعالى بجهادِهم يَلْزَم منه وقوعُه وظهورُه، ويلزمُ من وقوعِ جهادِهم وضوحُهُ وتبيُّنُه عندهم، ويقتضي هذا حذفُ المقابل للعلم به؛ ليكون التَّقديرُ: ولمَّا يتبيَّنْ لكم الذين جاهدوا منكم من غيرِ المجاهدين، والمعنى: ولمّا يتبيَّن لكم المؤمنونَ من المنافقين؛ لدلالةِ السِّياق على المعنى، وفائدةُ التَّعبيرِ عنْ عدمِ التَّبيُّنِ بعدم علمِ اللهِ تعالى به أنَّ المقصودَ هو التَّبيُّنُ من حيثُ كونُه متعلَّقًا للعلم ومدارًا للثَّوابِ، فيكون المرادُ تحصيلَ الجهادِ والإخلاصِ؛ ليُجازى المؤمنونَ بالثَّوابِ عليهما[1].

فائدةُ مجيءِ صلتين للاسم الموصول:

أهمُّ مقصدٍ في القتالِ الامتثالُ لأوامرِ الله تعالى وصدقُ النِّيَّةِ

قوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، بتقدير: (الَّذينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ، وَالَّذينَ لَمْ يَتَّخِذُوا)، فأفادَ مجيءُ صلةِ الموصولِ جملتين أنْ ليسَ الغرضُ من إيجابِ القتالِ نفسَ قتالِ الأعداءِ فقط، بل الغرضُ أن يؤتَى به انقيادًا لأمرِ الله ﷻ، فيجمع المجاهدُ بينَ القتالِ وسلامةِ الإيمانِ؛ ليظهرَ بهِ بذلُ النَّفسِ والمالِ في طلبِ رضوانِ اللهِ تعالى، فحينئذٍ يحصلُ به الانتفاعُ، وأمَّا الإقدامُ على القتالِ لسائرِ الأغراضِ الأخرى فذاك ممَّا لا يفيد أصلًا[2].

مناسبةُ العطفِ في قوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾:

تحتمل الواوُ أنْ تكونَ عاطفةً؛ لتكونَ جملةُ ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/49.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/8.

معطوفةً على ﴿جَٰهَدُواْ﴾، فتفيدُ الواوُ حينئذٍ التَّشريكَ في الحكم، وتكون جملةُ ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾ داخلةً في حيِّز الصِّلةِ[1]، ولم يقل: (ولمّا يعلم اللّه الذين جاهدوا منكم والذين لم يتَّخذوا)؛ لأنَّ الكلامَ في جماعةٍ معيَّنةٍ هم المؤمنون، لتكونَ جملتا الصِّلةِ معًا قد أزالتا الإبهام الذي في الاسم الموصولِ، أي: لمّا يعلمِ اللّهُ الذين جمعُوا بين وصفَي الجهادِ وانتفاءِ اتِّخاذِ البطانةِ من المنافقين، فيكون من قبيل الجمعِ بينَ صفةٍ معنويَّةٍ وصفةٍ سلبيَّةٍ، للإشعارِ بانتفاءِ انفكاكِهما عند المخاطَبين المؤمنين، فإنَّ المجاهدَ قد يقاتلُ، ولا يكون مخلصًا بل يكون منافقًا، باطنُه خلافُ ظاهرِه، وهو الذي يتَّخذُ الوليجةَ من دونِ اللّهِ ورسولِه والمؤمنين، وهذا يقعُ عندَ ضعافِ النُّفوسِ في وقتِ الجهادِ، فبيَّن تعالى أنَّه لا يتركُهم إلَّا إذا أتَوا بالجهادِ مع الإخلاص خاليًا عن النِّفاقِ والرِّياءِ والتودُّدِ إلى الكفَّارِ وإبطالِ ما يخالفُ طريقةَ الدِّينِ[2]، وهذا الوجه يفيدُ المغايرة بين المعطوفين، ويحتمل أن يكون العطف على معنى التَّفصيلِ، فإنَّه لمّا قال: ﴿جَٰهَدُواْ﴾ أراد: جاهَدوا مخلصين؛ لأنَّ الأصلَ في الجهادِ ألَّا يكون إلَّا بإخلاصٍ، فعطف قوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾ للبيانِ والإيضاحِ[3]، وتحتمل الواو أن تكون حاليَّةً[4]، والتَّقدير: الذين جاهدوا حالَ كونهم غيرَ متَّخذين وليجَةً، فيكون للاسم الموصول جملةُ صلةٍ واحدةٌ مقترنةٌ بجملةِ الحال؛ ليفيد المعنى أنَّ نفي الاتِّخاذ مقترنٌ بوقوعِ الجهاد، فيؤذنَ أنَّ الجهاد لا يسمَّى جهادًا إن لم يكن في حالِ نفي اتِّخاذ وليجةٍ من دون اللّه، فإنَّ اللّه لا يرضى أنْ يكونَ الباطنُ خلافَ الظَّاهرِ.

لا ينفكُّ الجهادُ عن انتفاءِ اتِّخاذِ البطانةِ من المنافقين

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/8، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/385.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/385.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/399.

(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/41، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/399، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50.

فائدةُ تقديم الحال على المفعول به:

تقدَّم الحال في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على المفعول به ﴿وَلِيجَةً﴾ مع أنَّه في موضعِ البيان للوليجةِ؛ للاهتمامِ بهِ ولتعظيم شأنِه، ولإفادة التَّخصيص، بمعنى: لا ينبغي أن يتَّخِذَ المؤمنون وليجةً إلَّا اللهَ ورسولَه والمؤمنين.

بيان أن لا ينبغي أن يتَّخِذَ المؤمنون وليجةً إلَّا اللهَ ورسولَه والمؤمنين

دلالةُ حرف الجرِّ ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ ابتدائيَّةٌ؛ للإشعارِ بأنَّ الوليجةَ التي تُتَّخذُ من دون اللّه ورسولِه والمؤمنين بعيدةٌ عن مبدئها، وهو اللّه ورسولُه والمؤمنون[1].

ابتعادُ من يتَّخِذ المنافقين وليجةً عن الله ورسولِه والمؤمنين

إيثارُ التَّعبير بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾:

يأتي لفظ ﴿دُونِ﴾ بمعنى (غير) كما هو في الآية هنا، والتقدير: (من غيرِ اللّه)، ولم يقلْ: (من غيرِ اللّه)؛ لإفادة لفظ ﴿دُونِ﴾ معنى القربِ، أي: الأقربُ لكم الذي تتَّخذونه وليجةً هو اللّه ورسولُهُ والمؤمنون، فيفيد الحثَّ على الأمرِ لقربِه، كما يشعرُ لفظ ﴿دُونِ﴾ بمعنى التَّجاوز، أي: لم يتجاوزوا اتِّخاذَ الوليجةِ دون اللّه ورسولِه والمؤمنين، ففيه إشعار بأنّ مَن يتَّخذ الوليجةَ من دون اللّه؛ فقد تجاوزَ أمرَ اللّه تعالى، وارتكبَ الخطيئةَ.

وليجةُ السُّوءِ تعترضُ المؤمنين عندَ جهادِهم

أو يقال: لمّا كان (دون) بمعنى (قُدَّام)، ودخلها معنى (غير)؛ صارَ كأنَّه قال: إذا وصلوا إلى غيرِ اللّه ورسولِه والمؤمنين لم يكتفوا به، ولم يتَّخذوه وليجةً، وطلبوا اللّه سبحانَه، ليشعرَ باعتراضِ وليجةِ السُّوء للمؤمنين عندَ جهادِهم في سبيل اللّه[2].

دلالةُ التَّرتيبِ بين لفظ الجلالة وما بعده من معطوفات:

قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، دلَّ ذكرُ الاسمِ الجليلِ أوَّلًا على تراخي الرُّتَبِ عن مكانتِه سبحانه؛ لأنَّه المنفردُ

رفعةُ مقامِ الرَّسول ﷺ والمؤمنين بما انتسبوا به إلى الله تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.
(2) الرّضيّ، شرح الكافية: 2/24، والسّامرائي، معاني النّحو: 2/212.

بالكمال[1]، ثمَ لمّا ذكر ﴿رَسُولِهِۦ﴾ ثانيًا؛ دلَّ على رفعةِ مقامِه ﷺ، ولمّا أضيف إلى الضَّميرِ العائدِ إلى الاسمِ الجليلِ؛ دلَّ على أنَّ اتِّخاذَهُ وليجةً هو لكونِهِ رسولًا منه ﷺ، ثمَّ ذكر المؤمنين تشريفًا لهم وتكريمًا؛ إذ جعل وليجتَهم من وليجتِهِ سبحانه؛ لأنَّ التَّقديرَ: (المؤمنين باللّه ورسولِه).

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رَسُولِهِۦ﴾ دون (نبيّه):

عُبِّرَ بلفظ ﴿رَسُولِهِۦ﴾ دونَ أن يقولَ: (من دون اللّه ولا نبيِّه) للتَّوسُّل إلى ذكر المؤمنين؛ لأنَّهم صاروا مؤمنين بمقتضى رسالتِه إليهم.

النبوّةُ ذاتيّةٌ خاصّة، والرّسالة متعدِّية لنفع المرسل إليهم

دلالةُ لفظ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بالاسم المشتقِّ رسوخَ إيمانِهم، وعراقتَهُ فيهم، وحُذِفَ متعلَّقُ الاسم المشتَقِّ؛ للعلم به بما دلَّ عليه السِّياقُ، والتَّقديرُ: والمؤمنين باللّه ورسولِه، ولمّا كان المعنى على طلبِ أن يكونَ المؤمنون وليجةً؛ دلَّ على أنَّ المؤمن مؤتمَنٌ على الأسرارِ وخفايا الأمور، ويُعتمَد عليه.

المؤمنُ مؤتمَنٌ على الأسرارِ وخفايا الأمورِ، ومعتمَد عليه في ذلك

مناسبةُ تكرارِ ﴿وَلَا﴾ في الآية:

تكرَّرت ﴿وَلَا﴾؛ لإفادة تأكيد النَّفي، وللإيذان بأنَّ الوليجةَ تكونُ للّه ولرسولِه وللمؤمنين، بمعنى أنَّه لا بدَّ من اجتماعِها، وأنَّ لكلٍّ نوعٍ خُصوصيتَّهُ في الوليجةِ.

تكرار الحرف تأكيد للمعنى المراد في الجملة السّياقية

بلاغةُ التَّعريض:

قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، في هذه الجملةِ تعريضٌ وطعنٌ بالمنافقين الَّذينَ اتَّخَذُوا الوَلَائِجَ، لَا سِيَّمَا عِنْدَ فَرْضِ القِتَالِ[2]، وتُشعر الصِّيغةُ بأنَّهم تمسَّكوا

سيُظهِرُ اللهُ تعالى سريرةَ المنافقين ويفضحُهم بين النَّاس

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/399.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/15، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/384.

بوشيجتِهم، وأنَّهم غيرُ تاركينَ لها على اجتهادٍ منهم في طلبِها وتكلُّفٍ في تحصيلِها[1]، وفي الكلامِ إشعارٌ بتوبيخِ كلِّ من يفعل هذا الفعلَ، وأنَّ اللّه تعالى سيُظهِر سريرتَهُ، ويفضحه بين النَّاس.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿وَلِيجَةً﴾:

الـولـيـجـةُ المذمومة، إغراءُ العدوِّ بالمسلمين والإفـضـاءُ إليه بسرِّ المسلمين

شُبِّه المنافقُ المخادع الذي يكون في القومِ مخالطًا لهم بكثرةٍ، بحيث يكون مُعتمَدًا عليه، وهو ليس منهم، بالذي يدخل في مكمَنٍ، وهو لا يظهر على سبيلِ الاسْتِسْرَارِ، بجامعِ الاعتمادِ عليه، ومعرفةِ خفايا الأمورِ، ومباطنةِ الأسرارِ، ولمّا جاء لفظ ﴿وَلِيجَةً﴾ نكرةً في سياق النَّفي؛ دلَّ على عمومِ أفرادِه، ليشمل الخديعة وإغراء العدوِّ بالمسلمين، وليشمل اتِّخاذ أولياءَ من أعداء الإسلام يُخلَصُ إليهم، ويُفضَى إليهم بسرِّ المسلمين[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملة التَّذييل:

علمُ اللهِ محيطٌ بجميعِ أعمالِنا وأغـراضِـنـا، وسـيـجـازيـنـا عـلـيـهـا يـومَ القيامةِ

جملةُ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تذييلٌ لإنكار ذلكَ الحسبان، وتعجيبٌ من ظنِّهم، أي: لا تحسبوا ذلك مع علمكم بأنَّ اللّه خبيرٌ بكلِّ ما تعملون، وكيفَ تحسبونَه، واللّه خبيرٌ بما تعملونَ؟ كما أفادتْ إزاحةَ ما يُتوَهَّم من ظاهرِ قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ﴾ من عدم علمِه تعالى بخفايا الأمور وبواطنِها، فتكون الجملةُ إطنابًا في الكلام، ولمّا كان المقامُ مقامَ التَّرغيبِ في الإخلاص والزَّجرِ عن خلافِه؛ شمَلَ العلمُ المفادُ من قولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ﴾ علمَ العملِ وعلمَ الغرضِ منه، فيكون المعنى: واللّهُ يعلمُ جهادَكم وجميعَ أعمالِكم، ويعلم غرضَكم من الجهادِ ومن غيرِه من الأعمالِ، كما تفيدُ جملةُ التَّذييلِ الوعيدَ لمن يتركُ الجهادَ والمجازاةَ على تركِه، فإذا كانَ اللّه خبيرًا بما تعملون؛ فإنَّه سيجازيكم على أعمالِكم يومَ القيامةِ[3]. وقد جاءتِ

(1) الرّضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/109 - 110.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/315، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/139.

الجملةُ على معنى العموم بما يدلُّ عليه لفظُ ﴿بِمَا﴾ الموصولة، وحذفُ العائدِ من الفعل ﴿تَعْمَلُونَ﴾، فأفادت الجملةُ كلِّيَّةَ المعنى؛ لأنَّ المعنى: واللّه خبيرٌ بكلِّ ما تعملونه، لتكونَ الجملةُ كالمَثَلِ الذي يجري في الكلامِ.

مجيءُ الخطابِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر:

أعمالُ جميعِ النَّاس في علمِ الله تعالى، وإنْ أخفَوها

عَبَّرَ بصيغة الخطاب في قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وهو لا يريد مخاطَبًا معيَّنًا؛ ليعمَّ الخطابُ كلَّ مخاطبٍ على سبيلِ البدلِ، قصدًا إلى ظهورِ عملِهم عندَ اللّه تعالى، وأنَّه قد بلغَ النِّهاية في الانكشاف، بحيث إنَّ ظهورَ العملِ من جميعِ النَّاسِ في علم اللّه تعالى مثلُ ظهورِه في حالِ الخطابِ، ويدخلُ فيه المخاطَبون بالآية دخولًا أوَّليًّا[1].

توجيهُ قراءة الغيبة والخطاب في ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

القراءة بالغَيبة استدرارٌ لأسماعِ المخاطَبين، وتنبيه إلى إحاطةِ علمِ اللهِ بأَعمالِهم

قَرَأَ الْجمهورُ بِالتَّاءِ عَلَى الخطَابِ في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مناسَبَةً لقَولِه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، ليجري الكلامُ كلُّه على نسقِ الخطابِ، وَقَرَأَ الحسنُ، ويعقوبُ في روايةِ رُوَيسٍ وَسَلَّام بِالياءِ (يَعْمَلُونَ) عَلَى الغَيبَةِ؛ ليكون التفاتًا يرادُ به استدرارُ أسماعِ المخاطَبين مزيدًا في إصغائِهم، ولِتنبيهِهم إلى إحاطةِ علمِ اللّهِ بجميعِ أَعمالِهم[2].

توجيهُ المتشابهِ القرآنيِّ:

تقديمُ الوصفِ (خبير) وتأخيرُه على وَفْقِ مناسبةِ سياقِ الآيةِ وسباقِها

جاء في مواضعَ من القرآن قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 234، 271/ آل عمران: 182]، بتقديم متعلِّق الخبر الجارِّ والمجرورِ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على خبرِ المبتدأ، وجاء في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، بتأخير المتعلِّق، ومرجعيَّةُ الاختلاف في التقديم والتَّأخير إلى مناسبةِ السِّياقِ، وبيانه: أنَّه إذا كان السِّياق في بيان أعمالِ الخَلقِ من الذهابِ والمجيءِ، أو في طلبِ الامتثالِ لأوامرِ اللّهِ ونواهيه

(1) التّفتازانيّ، المُطَوّل، ص: 214 - 215.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/15، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/385.

وغيرها، أو في بيانِ المجازاةِ على الأعمالِ والوعدِ والوعيدِ عليها؛ قُدِّمَ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على خبرِ المبتدأ؛ لِيفيدَ الرِّعايةَ والاهتمامَ بالأعمالِ، وأنَّها محطُّ الحكمِ في الآيةِ، وإذا كان السِّياق في بيان أوصافِ اللهِ تعالى والتَّعريفِ به سبحانَه؛ قُدِّمَ الوصفُ ﴿خَبِيرٌ﴾ على الجارِّ والمجرورِ، كما أنَّ رعايةَ الفاصلةِ له مدخلٌ في التَّقديم والتَّأخير، ولمّا بدأتِ الآية هنا بالحسبانِ الذي هو أمرٌ قلبيٌّ، ثم بيَّنَ إحاطةَ علمِ اللهِ بمَنْ يجاهدُ، ومَنْ لا يجاهدُ، ومَنْ غرضُه في جهادِه الامتثالُ للهِ تعالى والإخلاصُ في جهادِه، ومن ليس كذلك؛ قُدِّمَ الوصفُ، فبيَّن أنَّه سبحانه يعلم خفايا بواطنِهم، كما يعلمُ ظواهرَهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وأفاد التَّقديمُ رعايةَ الفاصلةِ كذلك، والمعنى: لا تحسبوا ذلك مع علمِكم بأنَّ اللهَ خبيرٌ بكلِّ ما تعملونه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البطانةُ والوليجةُ:

البِـطـانـةُ فـيـهـا مـعـنـى الانـبـسـاطِ، والـوليـجـةُ فيها معنى الدُّخول

لمّا كان لفظُ البِطَانةِ مستعارًا من بطانةِ الثَّوب الذي يكون أقربَ شيءٍ إلى الجسد، ومن شَأْن النَّاس إخفاؤه، صار يطلقُ على الدُّخلاء الَّذين يقرِّبون، ويُنبسَط إِلَيْهِم، ويوثقُ بمودَّتهم، ويسكنُ إليهم ويُستبطَنون، فيختصُّون بالاطِّلاع على باطن الأمر، ولهذا يُقَال: فُلَانٌ بِطانةٌ لفُلَان، أَي: مُداخِلٌ لَهُ مؤانس، فالبِطانةُ أخصُّ من الوليجة التي تطلقُ على مَن تُطلِعُه على سرِّك وخفايا أَمرِك لمخالطتِه لك لمصلحةٍ ترجوها منه، وقد لا تنبسطُ له، ولا تثقُ بمودَّته؛ لأنَّ الوليجةَ من الولوجِ، وهو الدُّخول، وجاء على صيغة المبالغةِ (فعيلة) للإشعارِ بكثرة دخولِه[1].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بطن، ولج)، والكفويّ، الكلّيات، ص: 251.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»